

السادات الذى سبق عصره

الويل

لمن سبق عقله زمنه.. ولقد سبق السادات زمنه وزمانه!.
وقد سجل التاريخ بين دفتيه أنه فى تمام الساعة الثانية ظهر السادس من أكتوبر كانت الأنظار جميعها ترنو إلى الجزء الخاص بالقوات الجوية التى كان يرأسها اللواء طيار «محمد حسنى مبارك» وكانت الإشارات قد وصلت تنبئ بل تؤكد أن قوات الضربة الجوية الأولى وقوامها مائتا طائرة قد عبرت فوق ارتفاع منخفض قناة السويس وبدأت الأخبار تترى بأن طائرات هذه القوة بلغت هدفها ونفذت مهامها الموكولة إليها بنجاح فائق فاق ما كان منتظرا منها، فقد تم ضرب مراكز قيادة ومواقع ومناطق حشد القوات الإسرائيلية..
.. وعندما أزيقت الساعة على الثانية وخمس وعشرين دقيقة بدأت القوارب «المطاطية» تنزل فى القناة تحت وابل من نيران العدو الذى أذهلته المفاجأة، وبدأ يفيق منها. كان على صفحة مياه القناة ما يقرب من ستمائة قارب مطاطى فى كل واحد منها ثمانية مقاتلين تشق طريقها إلى الضفة الأخرى وسط عاصفة من النيران، وكانت مجموعات الصاعقة التى اقتحمت أرض سيناء قبلها قد نجحت فى تعطيل عمل مواسير النابالم التى كانت ستحيل القناة إلى كتلة من اللهب.
.. وفى التوقيت ذاته السالف ذكره أيضا كان هناك لواء دبابات برمائى يعبر على القطاع الجنوبى من مياه القناة بالدبابات الضخمة من طراز «تى ٧٦» ووراء المدرعات السابحة من طراز الـ «توباز» الشهير.

.. وفى اللحظة نفسها عبرت فوق القناة مجموعة من الطائرات تحمل مجموعات من قوات المظلات الذين قفزوا بقرب منطقة المضائق تمهيدا وانتظارا وإعدادا لمرحلة ثانية من الخطة.

.. وفى الساعة الثالثة كان مجموع القوات المصرية التى تمكنت من عبور الجسور إلى الضفة الشرقية قد وصل إلى ٨٠٠ ضابط و١٣٥٠٠ جندى.

.. وفى الساعة الثالثة والنصف كانت قوات المهندسين تعبر فى وحدات بحرية خاصة جهزت بالخرائط وكانت المهمة الموكولة إليها هى فتح الثغرات فى الساتر الترابى على الضفة الشرقية من القناة هاتيك القوات التى كان لها دور مهم فى حرب أكتوبر؛ إذ عطلت القوة البحرية لإسرائيل وبثت الألغام داخل مياه البحر الأحمر ومنعت أية سفينة من دخول ميناء إيلات أو الخروج منه.

.. وفى الساعة الرابعة والنصف كان حجم القوات المصرية على الضفة الشرقية قد وصل إلى ١٥٠٠ ضابط و٢٢٠٠٠ جندى.

(وفى هذه اللحظة قام الرئيس «السادات»، ومعه الفريق أول «أحمد إسماعيل» قاصدين إلى مكتب القائد العام، وطلب السفير السوفيتى).

.. وفى الساعة الخامسة والنصف كان هذا الحجم قد وصل إلى ٢٠٠٠ ضابط و٣٠٠٠٠ جندى.

(قام الرئيس «السادات» مرة أخرى قاصدا إلى مكتب القائد العام ليتلقى مكالمة تليفونية له من «بريجنيف» - لكن الاتصال لم يتم لسبب

غير واضح، وقد انتهز الرئيس فرصة وجوده في مكتب القائد العام فاتصل ببيته بالجيزة وب «محمد حسنين هيكل» في مكتبه بالأهرام).

.. وفي الساعة السادسة والنصف كانت عملية فتح الثغرات في الساتر الترابي قد حققت جزءا كبيرا من مهامها، وبدأ تركيب كبارى العبور، وراحت الدبابات تتقدم على أول كوبرى تم تركيبه.

.. وفي الساعة العاشرة مساء كانت قوات المهندسين التي كان يترأسها الشهيد «أحمد حمدي» قد تمكنت من فتح ٦٠ ثغرة في الساتر الترابي، وأزاحت بالتجريف ما حجمه ٩٠٠٠٠ متر مربع من الرمال بفكرة الرائد «اللواء (باقي زكي يوسف)» صاحب الفكر العبقرى في تدمير الساتر الترابي على حافة القناة بطلمبات المياه، ووصل عدد الكبارى الثقيلة التي أمكن تركيبها إلى ثمانية، بالإضافة إلى أربعة كبارى خفيفة، و٣١ معدية كانت تتحرك بسرعة وقوة من ضفة إلى ضفة حاملة معها المزيد من القوات والمعدات.

.. وعندما حل منتصف الليل تماما كانت هناك خمس فرق كاملة من المشاة والمدربات على الضفة الشرقية لقناة السويس، وكانت معظم مواقع خط بارليف الحصينة قد حوصرت، ونصفها تم اقتحامه.

(وكانت الجبهة السورية تعيش مشهدا مماثلا، ففي هذا الوقت كان الطيران السوري قد قام بضربة أولى، ثم جرى تمهيد بالمدفعية، وفي الساعة الرابعة كانت المدربات السورية قد تخطت خنادق التحصينات الإسرائيلية في الجولان - وقبل أن ينزل الظلام كانت تتقدم في اتجاه مدينة القنيطرة عاصمة الجولان).

.. كان الرئيس «السادات» فى الساعة السابعة تماما، وكل القادة الذين تواجدوا متحلقيين حوله – الجميع فى حالة من النشوة لا تكاد تصدق. وقد تأكّدوا أن أخطر عملية فى الحرب كانوا يتحسبون ويتوجسون من خسائرها قد تمت بنجاح فاق خيالهم.

.. وكانت أروع لحظة فى حياتهم هى التى تلقوا فيها أول تقدير مبدئى عن حجم الخسائر المصرية فى العملية حتى الآن.

.. وكانت الخسائر فى عملية العبور هى استشهاده ٦٤ رجلا إلى جانب ٤٢٠ جريحا وقد أصيبت ١٧ دبابة، وتعطلت ٢٦ عربة مدرعة وكان ذلك لا يصدق؛ فقد كانت كل التقديرات العلمية عن الخسائر المحتملة فى عملية العبور تصل بها إلى عشرات الألوف من الشهداء والجرحى. وكان الرئيس «السادات» ومن حوله القادة يتبادلون النظرات وهم لا يكادون يتصورون واقع ما جرى أمام عيونهم. كان بكل المعايير ضربا من المعجزات. وأبدى الفريق أول «أحمد إسماعيل» ملاحظة واحدة قال فيها إن «الأولاد يتقدمون على الكبارى كما لو أنهم يقومون بعملية تدريب. وكأن كل هذه النيران من حولهم مجرد مناورة بالذخيرة الحية».

.. وفى الساعة السابعة مساء، كان الرئيس «السادات» قد اطمأن بأكثر مما راوده فى أوسع أحلامه جموحا – إلى أن هناك شيئا عظيما تم تحقيقه. وقد خطر بباله أنه يستطيع أن ينتقل الآن من مقر قيادته العسكرية، ويعود إلى قصر الطاهرة ليتابع من هناك آثار الساعات

التي عاشها فى المركز رقم «١٠» - على مصر وعلى العالم العربى، وفى الدنيا الواسعة.

.. بعد أن فرغ العقيد «عبد الرؤوف رضا» من عرض ما لديه، غادر الاجتماع. وعاد الرئيس «السادات» إلى فكرة إعداد بيان يلقيه على الشعب المصرى والعربى.

كتب الأستاذ «محمد حسنين هيكل» يقول:

- إن صيحة «الله أكبر» التى انطلقت بها حناجر الجنود على جسور العبور كانت تكفيننا صلاة ودعاء يشارك فيها كل المؤمنين، وهى فى كل الأحوال تغنيننا عن كل الأحلام بما فيها «أحلام الصالحين».

.. وعند منتصف الليل كانت الأنباء ما زالت تتعاقب على قصر الطاهرة، وكانت كلها أنباء سعيدة، وكان القصر ما زال يعيش على ذرى أمواج نشوانة بالفرح الغامر والسعادة الفائقة.

.. من الصعب على أحد - مهما بلغت درجة قربه من الحوادث - أن ينفذ بتحليل دقيق أو قريب من الدقة للمشاعر والأفكار التى تحركت وتدافعت فى عقل وفكر الرئيس «السادات» فى تلك الليلة الحاسمة من تاريخه وتاريخ مصر، ومع أن التاريخ أيام متصلة يترتب اللاحق فيها على السابق دون فجوة أو فراغ - فإنه من المحقق أن هناك تجارب خاصة فى حياة الناس يمكن أن يكونوا بعدها مختلفين عما كانوا قبلها، والتاريخ حافل بنماذج كثيرة لهذه اللحظات الفاصلة والفارقة فى حياة البشر، سواء كانوا على القمة فى بلادهم، أو من السفح والقياع.

.. وفى ليلة ٦ - ٧ أكتوبر، كان «أنور السادات» فى لحظة فاصلة وفارقة من حياته شكلت - على وجه القطع - مفترق طرق.

● قبلها كان واحدا من زعماء العالم العربى مثل غيره كثيرين وبعدها أصبح نجما يلمع فى آفاق عالٍ وشاهق.

● وقبلها فإن رجلا مثل «هنرى كيسنجر» - كان يتهرب منه ويصفه بأنه «بهلوان سياسى» - وبعدها لم يعد فى مقدور أحد - بمن فيهم «هنرى كيسنجر» - إلا أن يعترف له بأنه «داهية سياسى».

● وقبلها كان حاكما بشرعية مستعارة من سلفه «جمال عبد الناصر» - وبعدها فإنه أصبح يمتلك شرعية مستقلة يبدأ بها عصرا جديدا من حكمه.

● وقبلها لم يكن فى تاريخ العرب الحديث انتصار عسكري واضح - وبعدها فإنه سجل فى تاريخ العرب نصرا عسكريا على مستوى لم يكن ينتظره أحد.

● وقبلها كان رجلا تكررت وعوده واعتبرت كلها جوفاء وفارغة - وبعدها فإنه استطاع أن يحقق ما وعد به، وزاد عليه.

● وقبلها كان يتصرف وفى إحساسه أن «جمال عبد الناصر» كان رجلا أكبر منه - والآن فقد داخله الإحساس بأنه أصبح أكبر من «جمال عبد الناصر».

فهذا الذى تحقق على يديه اليوم لم يحدث ولا لـ «جمال عبد الناصر».

.. وقبلها وقبلها كثير، وبعدها وبعدها كثير أيضا، وما قبل مختلف دوما عما بعد!

.. وكان ذلك كله ماثلا فى ذهنه تلك الليلة، وقد عبر عنه بالنشوة، وربما استطاع تحليل بعضه، وأحس بأثر البعض الآخر دون تحليل - لكنه فى نهاية يوم طويل ومرهق، يدخل إلى فراشه ليلا وقد أصبح على قمة العالم - وقد أصبح مغربه ومشرقه مأخوذين بما حدث. .. كان هو الآخر مأخوذا بما حدث، وكان ما رآه وعاشه طول اليوم بالفعل أشبه ما يكون بانفجار قنبلة ذرية، وقد كان قراره هو الذى فجرها، وهذه حقيقة لا يملك أحد أن يجادل فيها. ولقد كان يمكن رد هذا الانفجار الذرى إلى أسباب عقلانية - لكن ذلك لم يكن شاغله تلك الليلة.

.. وإنما كان شاغله ما يراه أمام عينيه: فلقد تم العبور العظيم - وهو الآخر عبر من مكان إلى مكان، ومن ضفة إلى ضفة، ومن حال إلى حال.

.. ولقد اختلط العبوران معا، فأصبح عبور القوات عبوره.. وعبوره عبور القوات. وفى واقع الطبيعة البشرية فإن ذلك كان محتملا.. وربما كان مفهوما.

.. ثمة جانب مهم فى شخصية السادات أغفله جُل من كتبوا عنه عدا الدكتور «نبييل راغب» الذى أُلّف كتاب «أنور السادات رائدا للتأصيل الفكرى» فأورد فى متن كتابه ما دبجته يراعة السادات فى مؤلفاته ودون من بين ما دون القصة القصيرة التى كتبها السادات بعنوان «ليلة خسرنا الشيطان» إذ قال:

.. «أخذ قرص الشمس يهبط رويدا رويدا، فتناثرت من تحته ظلال رمادية راحت تغمر سماء القرية «العابدية» معلنة غروبا جديدا وهذه سنة الله... فلا بد أن يسير الكون ما بين شروق وغروب ونور وظلام نحو النهاية التي أَرادها له خالقه القادر القوى الرحمن..»

.. وموكب الغروب فى القرية مهرجان رائع يتكرر كل يوم، فبينما تزدهم الطرق الزراعية بجمع العائدين من كفاح اليوم الطويل فى الأرض الطيبة رجالا وعددا وماشية وأنعاما.. نرى القرية وقد اكتست بدخان داكن يتعالى فى هدوء السماء، فوجبة الطعام الرئيسية لا بد أن تكون فى استقبال الرواد العائدين، شهية بقدر ما عانوا وبقدر ما يسمح به دخل البيت ومهارة سيدته شريكة الكفاح... إلى ما جاء بهذه القصة والتي تفصح عن موهبة أدبية فذة كامنة فيه، بان فيها اهتمام السادات الفائق باستخدام الرمز والوصف والتجسيد مما يدل على «الحس النقدى الرفيع» الذى يتمتع به السادات الذى كان يدأب على قراءة الكتب الثقافية المتنوعة، والقصص التى ألفها كبار الروائيين فى العالم ومنها (حد الموسيقى) لـ «سمرست موم».

.. وفى ١١ أكتوبر ١٩٥٥م كتب السادات مقالا على صفحات مجلة «التحرير» بعنوان «السبت العظيم» قال فى مقدمته:

«مصر إذا ما راجعت أيامها لم تلق للسبت العظيم مثيلا»
هل كان السادات يتنبأ بيوم السبت ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣م يوم ميلاد مصر من جديد.؟!»

.. ويوم النصر المبين.. بل بيوم وفاته فى ٦ أكتوبر ١٩٨١م.؟!»

.. كما كتب قصيدة سياسية بعنوان «أخى فى الشرق» كما أن له ثمانية مجلدات فى الفكر السياسى منها مؤلف فى السيرة الذاتية وهو كتاب (البحث عن الذات).

.. قليلون هم الرؤساء والزعماء الذين أفاء الله عليهم بنعمة الفكر الأدبى ومنهم «بنيامين فرانكلين» و «وينستون تشرشل» و «نهر» وكان السادات لاشك من بين هؤلاء.

.. كان أديبا.. مفكرا.. حصيفا.. وفيا.. كما كان قائدا للعبور عظيما. .. أثبتت تدويناته المتعلقة بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر أنها كانت كثيرا ما تفيض بالمشاعر الطيبة تجاهه.

.. يقول السادات فى لقائه بوفد المؤتمر الإسلامى فى القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٩٧٢ م: «لماذا الحقد والفرقة والتشتت؟ لن نستطيع أن نبنى بالحقد أبدا.. دعونا نضرب كل هذا ونعود لجوهر عقيدتنا: الحب والصفاء والأخوة والقوة التى تتولد بالإيمان وبالثبات وباليقين.. دعونا نعود إلى جوهر رسالتنا: الإيمان ما وقر فى القلب، الإيمان أخوة، محبة، يقين، غيرة على قيمنا وعلى حياتنا وأرضنا أيضا».

.. كان السادات وفيما لوطنه الذى سجن وطرد من وظيفته بسبب حبه له ولزملائه الذين طالما ذكروا وفاءه النادر إليهم حتى إن أحد كبار رجال القوات المسلحة قال: «لولا وفاء السادات لى فى محنتى لانتتهت حياتى».

.. وقالت شقيقته الصغرى السيدة «نفيسة السادات» فى برنامج تليفزيونى:

«إنه كان دائم الوفاء لأمه وشقيقاته وإخوته لا ينقطع عن زيارتنا أو السؤال عنا أو البحث عما يصادفنا من متاعب الحياة يعمل دوماً على إزاحتها من طريقنا.

.. كما تبارى أهالى ميت الكوم «أهل بلدته» بالإشادة بوفائه لهم والعمل الدؤوب على سرعة الاستجابة إلى مطالبهم. ومما ذكره فى هذا الصدد أنه كان يدأب إلى الذهاب إلى المساجد لتأدية فريضة الصلاة ولا يغادر مسجداً منها إلا وكان هو آخر من يخرج من بيت الله بعد أن يصفح المصلين فرداً فرداً.
.. كان جم الأدب.. جم التواضع.. يراعى الله فى كل خلجة من خلجاته أو سكرة من سكراته.

وإذا كان المأثور عن الفيلسوف الألمانى «كانت Kant» أنه عرف التنوير بأنه: هجرة الإنسان من اللارشد إلى الرشد.
إذا كان ذلك كذلك. وهو كذلك. فهكذا كان أنور السادات فقاد سفينة بلاده بعقل نير وقلب سليم وثاب من اللارشد إلى الرشد فى بحر لجى بين الصخور الصلبة الصلدة تحوطها الأخطار من جوانبها تتهددها بالسقوط فى أعماق اليم ودرر إسرائيل بدثار الأحزان التى ما فتئت تحوطها من جميع الأركان، وحقق لشعبه مجداً ونصراً مؤزراً تحدث به الزمان.

المستشار

محمد مرشدى بركات

الأسكندرية فى ١٨ / ٩ / ٢٠١٣